

جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقطع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول له: (احضر طيبة)^(١).

لم يمهله عبد المطلب.. لقد عاجله قاتلاً: وما طيبة؟

ولم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولم يرد. وفي الغد رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عليه يجد لذلك الحلم تفسيراً، وما إن غاص في سباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احضر بره)^(٢).

(يقول عبد المطلب: قلت: وما بره؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه.. فجاءني فقال: احضر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تنزف أبداً ولا تدم، تسقى الحجاج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

فلما بَيَّن لعبد المطلب شأنها، ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا^(١) بمَعْوَلِه ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس له يومئذ وليد غيره.. فحضر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي^(٢) كَبَّر^(٣). فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته.. فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. أشركنا معك فيها.

فقال عبد المطلب: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم.

فقالوا: أنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال عبد المطلب: نعم.

وكانت - هذه الكاهنة - بأشراف الشام. فركب عبد المطلب، ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز^(٤)، حتى إذا كانوا يبيعونها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعضشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا عليهم. وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرة، ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نَعَمْ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً^(٥)

لقد كان ذلك الرأي سقيماً.. إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة والضيق الذي لا مبرر له، إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك القوم.

(١) انطلق في الصباح.

(٢) طي البئر وهو من الحجارة.

(٣) قال: الله أكبر.

(٤) أي أن الأرض صحراء مهلكة لا ماء فيها.

(٥) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر ما بعده.

صاح عبد المطلب بتلك الجثث الملقاة في اللُحود قائلاً: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا؛ لَعَجْزٌ.. فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارْتَحِلُوا).

فارتحلوا، حتى إذا بعث^(١) عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال. فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة^(٢) هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم^(٣).

رجع عبد المطلب بفضل الله وحده لا بهمهمات الكاهنة وتمتماتها، وأرجع الله بذلك النبع الحياة إلى جثث التحفّت بقبورها، وقادتهم ناقة عبد المطلب إلى مكة يحملون على عيسهم بعض الماء، ويحملون التسليم بحق عبد المطلب ببئر زمزم، إنه الآن يتولى سقاية بئر جده إسماعيل عليه السلام..

جده إسماعيل صاحب البئر الأول، وأول من شرب منها رغم أنه لم يحضرها، لكنها من أجله تفجرت..

جده إسماعيل هو أول من سكن مكة.. عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً، لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدرانها جبال، كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر، تمر بها

(١) دفعها للنهوض.

(٢) الأرض التي لا ماء فيها.

(٣) ما بين الأقواس خبر صحيح عن علي رضي الله عنه وهو لم يدرك جده، فهو مرسل ربما سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم.. رواه ابن إسحاق دلائل النبوة ١-٩٣: حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الله بن زريق، أنه سمع علي قال: قال عبد المطلب بن هاشم: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال لي: احضر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال: احضر المذنونة. قلت: وما المذنونة... إلخ يزيد ثقة التقريب ٦٠٠، ومرثد ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن زريق تابعي ثقة رمي بالتشيع التقريب ٣٠٣.

القوافل فلا تتوقف، والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقف، لكن رفقة طيبة توقفت، رفقة طاهرة قادمة من البعيد البعيد، تملو مع الدروب وتنخفض، تعبر الفيافي والقفار، وتعبّر المفاوز والرمال، وتشق أمواج السراب.

امرأة طاهرة.. اسمها: هاجر.. جاء بها زوجها الخليل عليه السلام جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت^(١) عند دوحه^(٢) فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبِّنا إِنِّ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٣).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت (الصفاء)^(٤) أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي^(٥) رفعت درعها^(٦) ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة)^(٧) فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام - الكعبة.

(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٤) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.

(٥) وهو ما بين العلامات الخضراء الموجودة داخل المسمى الآن.

(٦) درع المرأة هو قميصها.

(٧) جبل آخر.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه^(١)، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، يبينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رِفْقَةً من جُرْهم، أو أهل بيت من جرهم^(٢)، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدهنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين^(٣)، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم» وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني: كيف عيشتنا؟ فأخبرته أنا في جهد

(١) تجمعه.

(٢) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إسماعيل، ومع مرور السنين ألدوا فأبادهم الله (لسان العرب).

(٣) الجري هو الرسول.

وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبت عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه: فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه».

فهما لا يخلو عليهما^(١) أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه: يثبت عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألني عنك فأخبرته.. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ عليك السلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبت عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة^(٢) مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»

(١) أي اللحم والماء.

(٢) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

فجعللا بينيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(١)

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنه إسماعيل عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾^(٢)

وكان لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء، بل فيها الصبر والدماء.

فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ١٠١﴾ قَالَ يَتَابَعْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥﴾ إِنَّكَ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾^(٣)

وكان هذا الذبح كبشاً افتدى الله به نبيه إسماعيل، وحفظ به نسله من الانقطاع.

(١) رواه البخاري ١٢٢٧ - ٣ عن ابن عباس موقوفاً مع وجود فقرات مرفوعة.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

سافر إبراهيم، وماتت هاجر، وبقي إسماعيل في مكة حتى مات ودفن هناك، وممرت الأيام على بيت الله وكعبته، وسلالة إسماعيل تحيط بها وتجلها وتحترمها، ولا تلوثها بالشرك والأصنام، وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

كانت مكة نقية.. ظاهرة من الشرك، حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: "عمرو بن لحي"، فبدأ بغرس الشرك في أرض مكة وقلوب أهلها، فأنحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرسل، وأنزلت كل الكتب السماوية.. شيطان بشري اسمه: (عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة)^(١) والسوائب: شياهم وبهائم تترك للآلهة، لا تمس ولا تحب.

غصّت مكة بالشرك والأصنام، وانحرف أهلها عن عبادة الواحد الأحد وهن ملة أبيهم إبراهيم، إلى عبادة أخشاب وأحجار يصنعونها بأيديهم.. كانت الكعبة تن من مما نصب على ظهرها، أما أهل مكة فتناسل الشرك في قلوبهم وعقولهم، وكان آخرهم حفيد إبراهيم عليه السلام: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف، وحاز بئر زمزم، ولكنه لم يحز حتى كل أحلامه، لقد كان يحلم وينذر.

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّت عبد المطلب فوجد الناس تنظر إليه.. تحبه وتجله، وتحمله في قلوبها، وتَلَفَّت ثانية وثالثة ونظر وراءه، فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث، فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم، الذي ساق له المجد أن يقر عينه بأخوة للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حوله.. يشهدهم ويقول لهم إنه: (قد نذر إن توافى له عشرة رهط^(٢)) أن ينحر أحدهم.

فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارقت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد المطلب.

فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارقت القرعة على المائة من الإبل^(٣)

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣ - ١٢٩٧ ومسلم ٤ - ٢١٩٢.

(٢) أي إن رزقه الله عشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن رواه الطبري في تاريخه ٢ - ٢٣٩ حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا =

إن الله يعطي بلا ثمن ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو ليس بحاجة لدماء ذلك الطفل البريء، لكن والده شدد، فشدد الله عليه، فأصابه بأعلى ولده، فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشلت ذلك الصغير من السكين، ليعيش بقية عمرٍ قصيرٍ منقوشاً في التاريخ.. ما بقيت الجبال على ثباتها.

عاش ذلك الطفل وكبر ذلك حتى بلغ سن:

الزواج

ترى عبد الله ذلك الطفل الوديع في قلب عبد المطلب وترى فيه، وبلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سفه، كأنني به هادئ كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير، كان كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عن زوجة له في بيوتات مكة ويسأل، فكانت فتاة يقال لها "آمنة بنت وهب بن عبد مناف" هي الحبيبة وهي الإجابة.

تزوجا.. فكان الحب، وامتلاً بيتهما الصغير بالبهجة، وبالشباب الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال، ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه، ومن فدية أبيه، لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغيره..

إنها للعالم أجمع، أما هو فتوشك أن تدلف بيته الصغير سحابة سوداء مشبعة بالحزن والدموع والنواح، فعبد الله الذي فر من الموت بمائة من الإبل.. يسعى إلى حياضه على واحد منها.. امتطى راحلته وتوجه نحو يثرب.. حيث كان الموت في انتظاره، ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنة الحزينة، التي كانت تحمل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيئاً تيمم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

= يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تتحرر ابنها عند الكعبة، يونس ثقة، وشيخه ثقة حافظ عابدين التقريب ٦١٣، وابن يزيد ثقة التقريب ٦١٤، لكن في روايته عن الزهري وهما قليلاً يجعل حديثه حسناً لذاته. انظر التهذيب ١١-٤٤٧.

كأنني بعبد المطلب والفاجمة أفقدته صوابه.. يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم، علّه يسمع تكذيباً لما سمع، علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يمت ما زال حياً، وهو قادم إليك.

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هذه الدنيا، وتودع عبد المطلب، لينثني ذلك الشيخ العظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة، فتبكي حبيبها الذي قبض بعيداً عنها، وفارقها في وقت كانت تحترق لعودته وتشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

ملأت الحيرة والوجوم مكة لهفاً على عبد الله، لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة، فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. مكة اليوم تن تحت أقدام فيل مخيف وحراب جيش ضخّم زاحف لهدم بيت الله الحرام وكعبته، كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها، ومن عبيدها إلى ساداتها، كأنما كان يدرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب، فتطائر أهل مكة فوق ذرى الجبال وتفرقوا بين الشعاب، فالأمر فوق ما يحتملون، ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم، وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال للمكهم^(١):

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب: إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأهلّ ثم قال:

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمير مصفود على عشرين ألفاً... ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم إن لكل إله
لا يغفلن محالهم

حلال فامنع حلالك
أبداً محالك

اللهم فإن فعلت
فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيراً أباييل،
التي قال الله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾^(١). فجعل الفيل
يعج^(٢) عجااً.. فجعلهم.. كعصف^(٣) (مأكول)^(٤).

كانت حجارة حقيقية لا تخطيء أهدافها، وكان عذاباً سماوياً مبيداً لطاغوت من
الطواغيت.

أما في مكة فكان هناك من لم يستطع الهرب.. آمنة تعاني من آلام الوضع، ترى
هل أقعدتها تلك الآلام.. هل تركها أهلها وحدها لتلد ابنها (في يوم الفيل)^(٥) وحيداً..
تفرق قومه ومات أبوه، والموت رعب وسيوف تحيط ببلده؟ لا أدري ربما.

لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم، وموتاً للهمجية والضلال،
وُلد محمد، ومات أصحاب الفيل، وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة..
وأسرار الطيور.. (ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)^(٦)، وكانت ولادته

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فيتفتت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها، فاكتفيت بما
كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم ٢-٥٣٥ من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير بن
عبد الحميد، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من
مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال للملكهم: إسحاق ثقة حافظ التقريب ٩٩ وشيخه ثقة التهذيب ٢-٥٧
وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرحه غير مفسر، قال ابن معين:
ثقة جازي الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وقال الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء
إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح.
وقال يعقوب: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد تقويه.
(٥) إسناده جيد رواه ابن سعد ١-١٠١ من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن
سعيد بن جبير عن ابن عباس: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، يونس حديثه حسن. الكاشف ٢-٣٠٣
وحجاج كذلك وسعيد وابن معين أعلام.

(٦) رواه مسلم (٢-١٣٩٢) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٧) أما كم بين ولادته ووفاته والده فالأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(يوم الاثنين)^(١) أحد أيام (شهر ربيع الأول)^(٢) من عام الفيل، وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

أساطير ومولد

مولد محمد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشرى للقلوب وفرحة للأرواح، وبداية الإنقاذ لهذه البشرية من التيه والظلمة، وتحويل هذه الجموع العطشى وردّها إلى النبع الذي أضاعته وفرطت فيه، لكن ذلك لا يعني أن تتشقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى، حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض السذج، فصاروا يسقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب، فأنشأوا حوله الأساطير والخرافات، وجاءوا بالروايات الملفقة التي كادت تشوه سيرته الطاهرة^(٣).

كذبوا فقالوا: إن محمداً وهو طفل رضيع كان يناغي القمر، فحيثما أشار إليه اتجه، وكأنه يلعب به في مساحات الليل والفضاء، وكذب آخرون فقالوا: إن النجوم دنت من الأرض عند مولده، ولفقوا فقالوا: أنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أسرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث. لكن تلك الغيوم الأسطورية لم تستطع أن تحجب شمس الحقيقة، فلقد بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مساس، وكان منها:

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (٢-٨١٩) حيث قال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٢) كونه ولد في شهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبه وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١-١٩٩) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد ابن جبير بن مطعم (ابن كثير ١-١٩٩) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشر من ربيع، فلم أعثر على خبر صحيح لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجعون يوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

(٣) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساندها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد، فميزوا الصحيح من الضعيف. وقد حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

طلوع نجم أحمد

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب، حيث يرقد عبد الله تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم. كان يهودياً، وربما كان فلكياً.

صرخ الرجل بقومه قائلاً: (يا معشر اليهود. فاجتمعوا إليه. قالوا: ويلك ما

لك؟

قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة^(١).

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن تختفي في سراديب اليهود المظلمة، لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن كبر وشاخ، غلام صغير من أهل يثرب اسمه حسان بن ثابت.

إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي، وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في السماء، بل كانوا يعرفون مكان خروجه.. فقد أخبرتهم التوراة أنه سيسكن أرضاً ذات نخل في جزيرة العرب، وهي قرية من جبال "فاران" كما في التوراة، وجبال فاران هي جبال مكة، لذا سكن اليهود كل أرض ذات نخل في جزيرة العرب ومنها: خيبر وهجر وتبوك، ولكن أكثرهم سكن يثرب، ومن القبائل التي سكنت يثرب: قريضة والنضير وقينقاع. وهذا الرجل الذي رأى النجم أحدهم.

لم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الذي رأى هذا النجم، ففي مكة رجل حيران.. يقال له: زيد بن عمرو بن نفيل، كان يحدق في الأصنام.. يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله، فلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها، وتخلف عقول أتباعها وعابديها. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء.. لا تقدم ولا تؤخر.

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ٦٢ سماعاً من صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا يهودي في يثرب يصرخ ذات غداة...) وهو إسناد قابل للتحسين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلّس، والتابعون لم يتهموا وربما كانوا صحابة وللحديث شواهد تقويه منها ما رواه ابن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

ضاقت بها مكة وضاق زيد بها، فبحث له عن فسحة بين الفياضي والبطاح يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد، وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل، ولا يكف عن السؤال، حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام، فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع وصدقه واتبعه)^(١).

أما في يثرب ف(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد، مهاجره يثرب)^(٢). كان اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً، لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم، وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب. إذا فقد ولد محمد فمن سماه.

التسمية

قبل عبد الله، وقبل عبد المطلب، وقبل مئات السنين، كان هذا المولود حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء ويبشرون، ويوصون أمهم به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم، ويقول لهم: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٣).

كشف الله هذا الغيب وبشر به وذكر اسمه في الإنجيل، وفي التوراة من قبل الإنجيل، ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»^(٤)، ولا أدري من هو الذي حقق هذا الغيب

(١) إسناده حسن، رواه ابن حبان وأبو نعيم (ابن كثير ٢١٢/١) قالوا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن محمد عن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن عمرو. وهب ثقة التهذيب (١٥٩/١١) وخالد بن عبد الله الطحان ثقة، التهذيب (١٠٠/٣) وابن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عند البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

(٢) حسن بشواهده وسنده ضعيف رواه أبو نعيم (ابن كثير ٢١٤-١) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن وهو ضعيف. اللسان (٤٢٩/١)، لكن يشهد له ما سبق، وما في دلائل البيهقي ٩١/١ وما عند البيهقي أيضاً (٨٩/١).

(٣) سورة الصف: الآية: ٦.

(٤) سنده حسن رواه ابن سعد ١٠٤-١ من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة اسمه: عبد الله بن عامر القيسي، =

ووفقه الله لهذا الأمر، أهو جده عبد المطلب، أم أمه آمنة بنت وهب؟ ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما، ولكنه في النهاية سمي محمداً، أما :

رضاعه وحضاته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشاركها حضاته امرأة تدعى (أم أيمن) واسمها (بركة بنت ثعلبة بن عمرو)، وهناك امرأة ثالثة شاركت في رضاعه، وهي أمة لعمه أبي لهب، واسمها: ثوية. وقد (أرضعت ثوية رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي)^(١).

هذا في بداية الأمر، وبعد فترة من الزمن غشيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش، وكانت أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.

ربما كان باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم، وربما كان فقيراً لا يستطيع منافسة غيره في الانتقاء والاختيار لحفيده من بين تلك المرضعات، وقد يكون بيت آمنة لا يغري المرضعات على التوجه نحوه، فيجتمع لهذا الصغير يتم مريز وفقر موجع^(٢). لم يدم الأمر فسرعان ما أصبح الطفل بعيداً عن آمنة.

محمد في هوازن

وأخيراً استقر محمد اليتيم في أحضان امرأة طيبة من هوازن اسمها (حليمة السعدية).. شغفها حباً، وحملته على راحلتها ليسترضع في مضارب (بني سعد بن

= وقد حدثه بهذا الحديث شيخه زهير بن محمد التميمي وهو حسن الحديث إذا روى عنه غير شامي. وهذه رواية بصري وهي مستقيمة كما قال الإمام أحمد. التهذيب (٢/٢٤٨) وشيخه عبد الله بن محمد ابن عقيل حسن الحديث، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.
(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف إسنادها، هناك رواية تقول: إن حليمة لم تجد طفلاً سوى محمد ﷺ، ولو عدنا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنا عبد المطلب غنياً يملك قطيعاً من الإبل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائة من الإبل فداءً لابنه عبد الله بعد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبل هي كل ما يملكه الله أعلم؟

بكر^(١) قوم حليلة وأهلها، وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو، ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين، وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات، ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة، ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.

كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات ويمرحان ويلعبان، وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليلة من زاد ليأكلانه، فيسكن ما بهما من جوع ويعاودان اللعب في مراتع البراءة.. كانت أياماً تشع بالبراءة والجمال والبهجة، لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمدًا قد قُتل

فما الذي حدث، ولماذا يقتل طفل.. من الذي يقوى على اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

ما حدث هو أن الصباح أيقظ الطفلين، فخرجا من الخباء خلف أغنامهما، ولم يذكر أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى، وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه فقال: (يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)^(٢).

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في المرعى فهل حدث له شيء؟

نعم شق صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.

دعونا نستمع إليه وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (فبينما أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني، ثم

(١) حديث حسن رواه أحمد ٤ - ١٨٤ حدثنا حيوة ويزيد بن عبد ربه قالوا ثنا بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد السلمي انه حدثهم. وعبد الرحمن مجهول لكن يشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه حسن بعمومه.

(٢) جزء من الحديث السابق ويشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة.

استخرجنا قلبي فشقاها، فأخرجنا منه علقه سوداء، فألقياها، ثم غسلنا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياها رداها كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنتني. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنتني بمائة. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنتني بألف. فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنتهم^(١).

لقد شُقَّ صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً، كان ينظر ما يفعله الملكان به، ثم رأت أمه حليلة أثر الشق ورآه أصحابه، كانت الطريقة التي تمت بها هذه العملية معجزة لا تحدث للبشر. أحد أصحابه الذين رأوا أثر تلك العملية يقول: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقه، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره حليلة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون^(٢) أي متغير اللون . ويواصل حديثه مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)^(٣).

نعم لقد رآه، ولقد صدق، ولقد حدث، وهذا ما جعل حليلة بعد سماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه، لم يكن حليماً.. أتراها تعيده من أجل حلم أو رؤيا، ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم..؟^(٤).

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١). هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ.. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة فصاروا يلقفون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون بنبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. مثل ما لفق قاص ضعيف يدعى الغلابي. كما شطح على الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حليماً وليس حقيقة، فبم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟

(٤) هناك أمثلة كثيرة طالما كذبها أناس من المستخفين بالسنة، منها حديث البخاري أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحكم فليغمسه كله في الشراب ثم يخرج به فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة -وهم لا يؤمنون بالأحاديث التي =

عاد محمد الصغير إلى أحضان أمنة ترعاه وتحنو عليه.. تحدثه ويحدثها.. تلاعبه ويلعبها، وتقص عليه وتملاً دنياه ويملاً دنياها، فأى براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليلة. لا شيء كالأطفال براءة، فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة أمنة وسعادتها به، ويا لشقاءها بها وحزنه عليها، بعد أن أخذته معها متجهة به نحو أخواله في (يثرب)، حيث قضى وقتاً هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب، فسأعود لأضع لك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

وبعد رحلة حميمة زارا فيها أخواله الكرام الطيبين بني النجار رجعت أمنة بصغيرها إلى مكة، تضمه بين أحضانها وتلاعبه وتقص عليه، وترد على أسألتها التي تعن له في الطريق، وأحياناً يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه.. تطعمه وتهدهه، وتعبث بشعره الناعم بأناملها، فيغفوا بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلااتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبها وأجواءها وطريقها، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة شعرت أمنة بأوجاع مضنية، فتوقفت المطايا، ونزلت أمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلق عيناها بها، وهي تتوجع وتئن أمامه، ويشتد وجعها فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها، سوى نظرات حائرة خائفة.. نظرات حزينة.. تزيد آلامها فيزيد أنينها ورحمتها بهذا الطفل البريء، ثم تضعف أمنة وتذبل وتموت وهو ملتصق بها، يبكيها ويناشدها أن تفيق.. أن ترد عليه، لكنها لا ترد ولا تفيق، بل تؤخذ من بين يديه وهو يمسك بثيابها التي بللها بدموعه، وتدفن أمام عينيها الغارقتين بالدموع.. يمسحهما بيديه الصغيرتين وهو ينظر إليها وإلى الرجال وهم يهيلون التراب على قبرها.. بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه.

تؤخذ أمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، فيعود باكياً وحيداً حزيناً على الراحلة، ينتبه من نومه أثناء الطريق فلا يجد أمنة تحتضنه أو تقبله أو تسأله هل هو جائع،

= نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة؟ لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً ومخبرياً، انظر كتاب الدكتور خليل إبراهيم خاطر (الإصابة في صحة حديث الذبابة). ومن أراد الدهشة فليراجع موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الإنترنت، فستذهله معجزاته صلى الله عليه وسلم.

منظره يذيب القلب.. طفل صغير زائغ العينين، تتمايل به الراحلة والأقدار، ويصل مكة وقد تيمت مرة أخرى.. يعود إلى ذلك البيت الصغير، ويجول ببصره في أركانه الصامته، هنا كانت ترقد آمنة، وهنا كان يخبيء ألعابه، وهنا كانت تعد له طعامه، أما هنا فكان يستحم ببديها، وهنا كانت تلاعبه وتسعى لإضحائه عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.

كان بيتا كالدموع.. تجول فيه الذكريات وبقايا آمنة الحبيبة.

بيت صامت كالحداد.. لم يعد فيه صوت.. لم يعد فيه أم.. لم تعد إليه آمنة، إنها ترقد هناك بالأبواء، فيا للوعته ولهفه ويا حر قلبه عليها.

ربما تتبه ليلة فلم يجدها بقربه ففاضت عيناه بالدمع، وألجمه الحزن والحنين إليها، أو ربما كان يسأل جده وأعمامه أو عماته عنها فيتجرعون الصمت، وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتية عنهم الإجابة.

إن للطفل أسئلة ملحة ومحرجة، فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الدهر بأبيه وأمه.. يسأل عنها إلى أين ذهبت ومتى ستعود، وهل سستركه وحيداً أم سيذهب إليها...؟ أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصرتك خفضت رأسك وفاضت عيناك.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم بقبرها فرئى له بكاء لم يبكه من قبل.

يقول أحد أصحابه: (انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت. فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة^(١). وذات مرة زار (قبر أمه فبكى وأبكى من حوله)^(٢).

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ١-١٨٩ من طريق عن سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي ثقة وعلقمة ثقة أيضاً التقريب ٢٥٠ و٢٩٧، ورواه ابن حبان ٣-٢٦١ وغيره بسند حسن لولا عنفة ابن جريج فيه ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧١.

وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع؟ إنه مجرد نبي مرسل، والأمر كله لله وحده فعليه الصبر والاحتساب، كما صبر في صغره على مرارة اليتيم ووحشته، لكن ما قد يخفف بعض معاناته كونه الآن في:

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً، فحمله إلى بيته حيث تربي في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع.. صاحب الشرف وساقى الحجيج، فكانت أولى خطواته في درب الرجولة. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية، وكأن اليتيم علمه أن الحياة قاسية، لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح. لقد أحبه عبد المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه، فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها، ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل، إلا في يوم من أيام الحج، حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقى الحجيج، وزعيم قريش وسليل الأنبياء، لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء، وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً يا رب رده واصطنع عندي يداً^(١))

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل، ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت تثير التساؤل، فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنك عليك حزناً، لا تفارقني أبداً^(٢)).

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢-٢٠) من طرق عن خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن مشهور، لولا خارجة قال الحافظ: صدوق، وقد اعتمد على توثيق ابن حبان الذي سكت عنه في الثقات (٨-١٢٢) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لم يفارق هذا الشاب الصغير جده، ولم تكن أيامهما كلها رخاء وسعة، فلقد تتابعت على قریش سنون جدبة^(١) أقلحت^(٢) الجلد وأرقت^(٣) العظم) ويات الناس في شظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال، وفي أحد أيام تلك السنين الشاحبة.. كانت هناك طفلة صغيرة تسوق غنماً لأهلها، فيجري لها أمر غريب، وتسمع صوتاً أغرب.. هاهي تتحدث عنه فتقول: (بينا أنا ومعني صنوي^(٤) أصغر مني، معنا بهمات^(٥) لنا وربا، وأعبد، يردن على السحق^(٦))، فبينا أنا راقدة - اللهم - أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيت، يصرخ بصوت صحل^(٧)، يقول: يا معشر قریش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه^(٨)، فحي هلا^(٩) بالخير والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً^(١٠)، أشم العرنين^(١١)، له فخر يكظم عليه^(١٢)، وسنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف^(١٣) إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشئوا^(١٤) من الماء، وليمسوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس^(١٥)، فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا فغنمتم إذا ما شئتم وعشتم.

قالت رقيقة: فأصبحت - علم الله - مفؤودة، مذعورة، قد قف^(١٦) جلدي، ووله

(١) أي سنون لم ينزل بها مطر.

(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعامدها.

(٣) جعلته ليناً.

(٤) الصنو: الأخ الشقيق.

(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.

(٦) أي معها عبيد يلاحقن ما هرب من الغنم والسحق هو البعيد.

(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.

(٨) أي هذا وقت بعثته وخروجه.

(٩) أي أقبلوا مرحبا بكم لتتالوا الخير.

(١٠) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.

(١١) الشمم ارتفاع قصبه الأنف وحسنها واستواء أعلاها، كناية عن الرفعة والعلو والشرف.

(١٢) أي له فخر لا يظهره ولا يبيديه.

(١٣) يمشي.

(١٤) يصبوا والمراد الاغتسال به.

(١٥) جبل في مكة.

(١٦) اقشعر. والمفؤود المذعورة الخائفة المضطربة، ووله عقلي أي ذهل عقلي مما سمعت.

عقلي، فاقترضت رؤيائي، فتمت في شعاب مكة، فو الحرم والحرم، وإن بقي بها
أبطحي، إلا قال: هذا شيبة.

وتنامت عنده قريش، وانفض^(١) إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، واستلموا،
وطافوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون حوله^(٢) ما إن يدرك سعيهم مهله
حتى قر لذروته^(٣)، ما ستكفوا جنابيه، ومعهم رسول الله - وهو يومئذ غلام قد يفح
أو كرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم ساد الخلّة^(٤) وكاشف^(٥) الكربة، أنت عالم
غير معلم، مسؤل غير منحل^(٦)، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك - يعني أمنة
حرمك- يشكون إليك سنتهم^(٧) التي أقلت الظلف^(٨) والخف، فاسمعن اللهم وامطرن
غيثاً مريعاً مغدقاً. فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها، وكظ^(٩) الوادي
بثجيجه، فاستمعت شيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء
- هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحاء، وفي ذلك تقول رفيقة بنت صفى:

وبشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد فقدنا الحيا واجلوز المطر
فجاء بالماء جوني له سبل	ودان فعاشت به الأمصار والشجر
سبيل من الله بالميمون طائرة	وخير من بشرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به	ما في الأنام له عدل ولا خطر ^(١٠)

(١) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٢) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، ومعناه أحاطوا وأحذقوا.

(٣) أي لم يمر وقت قصير حتى امتلأ المكان بالناس.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثمة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزيل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك أحد.

(٧) السّنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير بالانتباه للسّنة

حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ليست السّنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا... وتمطروا ولا

تبت الأرض شيئاً» رواه مسلم ٢٢٢٨-٤.

(٨) الظلف: الظفر المشقوق للبقرة والشاة والطبي وغيرها.

(٩) ضاق الوادي من كثرتة.

(١٠) هذا الخبر ليس بحديث وهو حسن، رواه الطبراني ٢٤-٢٥٩ وابن أبي الدنيا في مجابوا الدعوة ٥٦ والبيهقي

من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميد الخلال، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن =

عادت الحياة خضراء في مكة، واهتزت الأرض وربت بفضل ربها، وضحك الربيع للجميع، لكن السعادة لم تدم لمحمد، فها هو بعد مدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة، لقد مات عبد المطلب جده وآخر آبائه لينتقل ربما^(١):

إلى بيت أبي طالب

حن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف السرير، ورق لحاله وكربه وبثه، ورعاه كأنه من صلبه.. ينسياه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً، فكان يلزمه ويرافقه في بعض الرحلات. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن، والصيفية تتجه نحو الشام، وللرحلتين أمن كأمن مكة، ذكره الله فقال سبحانه: ﴿لَا يَلْنفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾^(٢) الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾^(٣)، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة لمحمد وهو في طريقه نحو الشام بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشام ومعها (خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب - وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت - فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا سيد العالمين.. هذا رسول رب العالمين.. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

= عمران عن ابن حويصة، حدثني مخرمة بن نوفل، عن أمه رقيقة... والطريق الثاني: زكريا بن يحيى الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب، قال عمي عروة بن مضر، يحدث عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفي... وفي الأول ابن عمران، اختلط ففحش غلطه، وهو غير متهم، والآخر يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير التقريب ٦٠٨ و٦٠٩ وفي الثاني الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١). ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتوبع الكلبي عند البلاذري - أنساب الأشراف ٨٢. (١) أقول ربما لأنني لم أجد حديثاً أو خبراً صحيحاً يحدد عند أي أعمامه انتقل بعد وفاة جده. (٢) سورة قريش.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا للنبي، وإنني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع صنع لهم طعاماً فلما آتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - قال: أرسلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله. قال: انظروا إليه عليه غمامة تظله. فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوا إلى فيء الشجرة عليه، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم: أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم لو رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه.

فالتفت فإذا هو بتسعة نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق في طريق إلا قد بعث إليه ناس، وإننا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا. فقال لهم: ما خلفتم خلفكم أحداً هو خير منكم؟

قالوا: لا، إنما أخبرنا خبره فبعثنا لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، وهل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه.

وأقاموا معه، فأتاهم فقال: أنشدكم بالله أيكم وليمه؟

قال أبو طالب: أنا. فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب^(١) إلى مكة خوفاً عليه بعد أن تأكد من وجود صفة النبي المنتظر فيه، ليعود محمد إلى مكة، ويمارس عملاً يرسخ به صفة أخرى فاق بها كل الناس.

الأمين والغنم

لم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. يقتات من نسبه ويتسول بشرفه. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسه لصخورها، ويشق طريقه بذراع مفتول، وجبين مرفوع وشباب متجدد. تعاملت معه قريش كلها حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل

(١) ليس بحديث لكن إسناد قوي، رواه ابن أبي شيبه ٧ - ٣٢٧ وأبو نعيم - ١٢٩ والترمذي ٢ - ٢٨٩ وغيره حدثا قراد أبو نوح، حدثا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: وكلهم ثقات إلا يونس حسن الحديث التهذيب (٤٣٣/١١).

اسم هو له، ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده.. يُذكر من يمر بها ويكتفي. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)^(١).

(الأمين) هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم، لقد جربوه وخبروه، والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب، وليس لدى محمد الشاب ما يبذله من مال أو سلطة ليرغمهم على قول ذلك، لا سيما وهو من أصغرهم سناً، بل وربما كان أفقرهم.. ألجأه الفقر إلى أشقى المهن وأبسطها. كان يسير طوال نهاره خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)^(٢).. مهنة شاقة تمارس بأجر بخس، لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).

مهنة البسطاء وقادة الأرض والعظماء، وهل هناك أعظم من نبي. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)^(٣) ربما لأن صورة القطيع من الماشية تشبه سير سواد الشعوب في العالم، وهم يبحثون عن لقمة العيش، ومهمة الراعي تتطلب البحث عن أوفر المراعي عشباً وكلاً، وإن شق عليه ذلك، وليست وظيفته أن يبحث عن راحته ورفاهيته. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه ومفترسيه، إن الرعي بقدر ما يولد من القسوة والخشونة في حياة الراعي.. يهب له قلباً عطوفاً على رعيته، والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه الصفات، فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما. لكن بعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام، ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشباب ويعيش بينهم، ويسمع بمغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء، والقصف في الخمارات، لكنه كان يرتفع عما يسىء إلى اسمه ورجولته، ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش، والأمر عنده لا يتعدى دائرة حديث النفس والأمانى، لا أكثر، يمر عليه مرور سحاب الصيف الذي يمر ولا يمطر، فهو شاب كغيره، لكن رقيه يحجز بينه وبين تلك الأشياء.

(١) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (بيني الكعبة ويضع الحجر).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٧٨٩-٢ بلفظ: (كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٧٨٩-٢

إنه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت له عندما كان يمسك بعصاه يهش بها على غنمه فيقول: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهتمون به من النساء، إلا ليلتين، كلاتهما عصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاية غنم أهلنا - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى.

فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً بالغرايل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقلت: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقلت: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر.

فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته^(١).

إن شباباً وشيباً تعلمهم الغرائز وتلوي أعناقهم الشهوات، فيجهدون في الحصول عليها، دون أن يوقفهم نداء ناصح أو زجر زاجر، يبذلون الأموال كالخطوات، حتى يظفروا بسويغات حمراء وخيمة العواقب، فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار، لكن محمداً أوقفته حفلة عرس، وهددهته حتى نام، لأنه مهذب أتعبته هموم العمل، والتزام الوظيفة.. تشققت قدماء من صخور الجبال، وأدمتها أشواك الصحاري، فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً، فلاخ له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب له ذلك، فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البريء ما أراح ركام الهم عن قلبه،

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ١-٣١٥ وابن حبان زوائده ٥١٥ وأبو نعيم ١٨٦: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي. قال ابن حجر: إسناداه حسن متصل ورجاله ثقات. لكن أحد رجال هذا السند: هو ابن قيس من رجال الشيخين؛ إلا أن الحافظ قال في التقريب: (مقبول) أي عند المتابعة، وله شاهد ذكره الذهبي في سيرته ٤١- من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وفيه جهالة زياد، سكت عنه في (الجرح والتعديل ٣- ٥٣٦ ولم يعرفه الدارقطني. المغني ٢- ٢٤٣

ليبقى مشرعاً للسرور والابتهاج، ومع ذلك لم تكن المرأة بعيدة عن خياله وأحاسيسه، فقد كان - كأى شاب سوي - بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف، وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة، لكنه لم يجد فتاةً بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال، ولها من المال شيء وفير. سمعت بمحمد بن عبد الله فشدها ما سمعته: أمانة ورجولة واقران، فتمنته زوجاً رغم كبر سنّها بالنسبة إليه، ورغم زواجها من قبل، وتم لها ما أرادت، إلا أن أباه كان عقبة دون هذا الزواج الذي تتمناه كل فتاة، لكن حب خديجة ودكائها كانا أكبر من تخريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأسه.. لقد ملك محمد شغاف قلبها، فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له، وفخاً لا يستطيع الفكاك منه.

يقول أحد أبناء عم النبي: (إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه^(١))، فصنعت طعاماً وشرباً، فدعت أباه وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقته، وألبسته حلة - وكذلك كانوا يفعلون بالآباء - فلما سرى عنه سكره، نظر فإذا هو مخلوق وعليه حلة، فقال: ما شأنى هذا؟ قالت خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله.

قال: أزوج يتيماً أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت: أما تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران، فلم تزل به حتى رضي^(٢) وأذعن للأمر الواقع، أما محمد ﷺ فلم يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان له في صغيرات قريش ما يريد، لا سيما وهو حلم كل فتيات مكة، وسمعته تعطر الطرقات والأندية، كم من فتاة حسدت خديجة على فتاهها...

(١) أي يرفض تزويجه.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٢١٢-١ من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار وحديثه حسن، انظر التقريب (٤٨/١)، عن ابن عباس. وقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) لكنها ليست بصحيحة.

تزوج لأنه كان يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة.. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في نشاطاتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم^(١))، ليس فيها مدر^(٢)، وكانت قدر ما يقتحمها العناق^(٣)، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم تسدل سداً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، بادياً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة^(٤)، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا.

فلما أن أرادوا هدمه، إذا هم بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائر، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته سمعت إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا^(٥) إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل. فسمعوا خواراً^(٦) في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر.. أسود الظهر، وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذنبها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياذ، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٢) المدر هو الطين اللزج.

(٣) أي أن جدارها قصير لدرجة أن العناق تستطيع اقتحامها، والعناق أنثى أولاد الماعز.

(٤) مثل حرف D.

(٥) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.

(٦) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.